جامعة البصرة
كلية الفنون الجميلة
قسم الفنون التشكيلية
الدراسات العليا
الماجستـــــير

اسم التدريسي : أ.م.د. اسماء سمير
اسم المادة : نظريات التطور في الفنون
عدد الوحدات : (١)
تسلسل المحاضر: الاولى ٢٠/٢/ ٢٠٢٤
عنوان المحاضرة : مفهوم التطور ونظرية سبنسر

مفهوم التطور ونظرية سبنسر

تداول الفكر الغربي نظرية التطور بأهتمام متزايد خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ليجد تطبيقاته في العديد من الحقول المعرفية ، فبدأً من علوم البايولوجيا كمدونة اولى لنظرية التطور ، ثمة انتقالة الى علم الاجتماع والفلسفة في محاولة لصعود الفكر الفلسفي مع الفرنسي اوكست كونت نحو القراءة والتحليل العلمي للظواهر مستدعياً الفلسفة الوضعية positivism كأجراء معرفي وفقا للمبررات الاتية:

١- مغادرة علوم اللاهوت والميتافيزيقيا بوصفها معرفة اعتقادية وغير مبرهنة .
٢- تجاوز التناقضات القائمة بين المثالية وتقديها العقل على المادة والمادية بتقديمها المادة على العقل .

ان الفلسفة الوضعية كفرع من فروع الابستمولوجيا تقدم المعرفة من خلال التحليل العلمي الذي يقوم على التجربة والملاحظة لفهم خصائص الاشياء ، فبحسب توقعات كونت خلال القرن الثامن عشر التي اكدت انتفاء الحاجة للقضايا الدينية والفلسفية وتصدر القضايا العلمية سيصل العالم مرحلة متقدمة من الفكر والثقافة لذا قدم الفيلسوف الروسي نيقولاي برديائيف توصيفه للفلسفة الوضعيّة على انها مقدمّة لمرحلة علميّة خالصة في تطوّر الروح الإنساني . ويعد هربرت سبنسر احد رواد هذه الفلسفة عندما استعان بنظرية التطور ونقلها من الحقل البايولوجي الى حقل العلوم الاجتماعية بوصفها ظواهر قابلة للقياس والدراسة المستمدة من التجربة الحسية، والمعالجات المنطقية والرياضية .

بحث سبنسر الى جانب الفلسفة العديد من الحقول المعرفية بما يصعب معه الفصل بين كتاباته الفلسفية وغير الفلسفية فالى جانب الاخلاق والفلسفة السياسية له كتابات في علم النفس وعلم الاحياء واهتمام خاص بعلم الاجتماع الذي يوجه ويؤسس بطبيعته نحو الاخلاق والفلسفة السياسية وهنا تندرج فلسفة سبنسر ضمن قاعدة الفلسفة التركيبية التي لا تعتمد اطار فكري محدد بل هي مزيج من النظريات والافكار (مبادئ علم النفس ، مبادئ علم الاحياء ، الاخلاق ، علم الاجتماع) [١] وضمن هذه المجالات جاءت اهم مؤلفاته : المبادئ الأولى

[١] هربرت سبنسر : مقالة مترجمة مدخل حول المبادئ الاولى - موسوعة ستانفورد للفلسفة تر. حسام جاسم واخرون - مجلة الحكمة – ٢٠٢١- ص ٥- ٦

، مبادئ علم الأحياء ، مبادئ علم النفس ، مبادئ علم الاجتماع ، مبادئ علم الأخلاق ، الاستاتيكية الاجتماعية . لتجد نظرية التطور تطبيقاتها في هذه الحقول كدراسة لقراءة التطورات سوسيولوجياً " فالتطور بحسب الداروينية عملية نشوء ثم ارتقاء يصيب الكائنات الحية بفعل تغير في موروثاتها"وهي نتيجة حتمية ونهائية لعمليات طويلة وبطيئة وغير موجهة لتغيرات طبيعية – التطور "[١] اما " ميرتز فيقدم التطور بمعنى النمو المنتظم والمستمر لاشكال الوجود او سلسلة التغيرات التكوينية التي تطرأ على الكائنات البشرية ... وقد اضاف كار ارنست فون باير التنوع والاختلاف كطور من اطوار النمو في الاجيال المتعاقبة " [٢] وهكذا تبدو من اهم شروط وخصائص التطوربحسب علماء البايولوجيا : ١– النمو والتغيير ٢– التنوع والاختلاف .

سبنسر ومفهوم التطور في الحقل الفلسفي

يؤسس سبنسر لنظريته التطورية بدأً من مفهوم القوة ، مبدأ ثبات القوة ، مبدأ أستمرارية القوة ، فالقوة هي (وجودها ، ثباتها ، أستمراريتها) تتصارع ضمن محورين ، المحور الأول : كسبب فاعل ، كقانون يحرك المادة ، كمسؤول عن الحركة والمادة . المحور الثاني : كالعلة النهائية ، والمسوغ الذي يلجم كل شيء لمصلحة أنتصار المبدأ العام في التكوين والتطور[٣] **لذا حدد في** مؤلفه (المبادئ الاولى) ثلاثة مبادئ اساسية لتنظيم الكون، وهي :

- قانون استمرار القوة
- قانون عدم استقرار المتجانس
- قانون تعدد التأثيرات.

اذ يرى سبنسر ان حركة الكون بفعل قوة مستمرة ومتغيرة وعلى الرغم من تجانسه في الاصل ، الا أنه أصبح غير متجانس بشكل متزايد ذلك لأن القوة أو الطاقة تتوسع بشكل غير موحد . بما يجعل من التجانس عملية غير مستقرة لان القوة غير مستقرة ومتغيرة . وبسبب قانون تعدد التأثيرات فإن العواقب غير المتجانسة تنمو بشكل أكبر (أضعاف مضاعفة) ، مما يؤدي إلى صعود وتيرة التجانس إلى الأبد وتطورها إلى عدم التجانس. يفترض سبنسر ولو بشكل غير قطعي أن الكون سيتوازن في النهاية ، ويذوب نحو التجانس . بما يعني ان الكون يتصاعد في تعقيده بأستمرار لينقسم الى مجموعات متنوعة ومتزايدة في تمايزها فيصبح الكون غير متجانس بلا نهاية الى ان يحدث التوازن وهنا يبدو التطور بحسب سبنسر تحول من تجانس غير متماسك

---

[١]) مايكل ريوس : تشارلز داروين ، تر. فتح الله الشيخ ، م. احمد عبد الله السماحي ، افاق للنشر والتوزيع ، ط. ١، ٢٠١٠، ص١٣

[٢]) توماس مونرو : التطور في الفنون ، تر. محمد علي ابو درة واخرون ، مز احمد نجيب هاشم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . ج٢، ١٩٧٢، ص١٥

[٣]) هيبت بافي حلبجة : هربرت سبنسر واشكالية مفهوم التطور ، الحوار المتمدن العدد ٣٦٠٠، ٢٠١٢

الى عدم تجانس متماسك، يصاحبه تبديد الحركة وتكامل المادة [1] وبهذا التعريف يحدد سبنسر ثلاث محاور جوهرية متداخلة ومنفصلة في ذات الوقت وهي :

- المحور الأول : هو الأنتقال من الأولي إلى المركب ، من البسيط إلى المعقد ويسمى بالدائري لأنه الأنتقال من بساطة الوظيفة إلى تعقيدها .
- المحور الثاني : هو الأنتقال من التماثل إلى اللاتماثل ، من التجانس إلى اللاتجانس ، وهو المحور الذي يعرف بالأفقي ، لأنه الأنتقال من الحالة الواحدة إلى تنوعها ثم إلى تنوع التنوع ثم الاختلاف .
- المحور الثالث : هو الأرتقاء في درجة النوع أو المادة ، أي الأنتقال من اللامتعين إلى المتعين ، وهو المحور الذي نسميه بالشاقولي ، لأنه تصاعدي لولبي . [2]

واذا كان الارتقاء العضوي قانوناً للتطور فأن التقدم النتيجة النهائية ذلك ان الوصول الى تطور مركب حقيقي لا يتم الا عندما يتحقق التقدم فالتطور الذي يقصده سبنسر هو " أن التطور تحديد وتقدم من الفوضى الى النظام ، من اللامحدد نسبياً إلى الأكثر تحديداً " [3] وهذه الافكار تنطبق على جميع الظواهر العضوية وغير العضوية فكل الظواهر تمر من البسيط الى المركب ومن التجانس الى اللاتجانس بما في ذلك تطور الارض او الحياة او تنمية المجتمعات والصناعات والتجارة واللغة والادب والعلوم والفنون . على ان التكامل والتوازن والتقدم كخطوة اخيرة للتطور فأنه يتحول الى تدهور وانحلال وهذا هو الجزء الثاني من الإيقاع في عالم المادة وهي خاتمة التطور " فتتحول المجتمعات وتتفرق الشعوب ، وتتلاشى المدن وهنا يستعين سبنسر بنظرية الدورات التي تقول بان التغيير يتبع سلسلة من اطوار بناءة واخرى هدامة تحدث بالتناوب ربما تنطوي على تكرارات لا حصر لها في الماضي والمستقبل [4]

سبنسر ومفهوم التطور في الحقل السوسيولوجي :

عُرف التطور عند علماء الاجتماع سبنسر ، كونت ، ماركس بانه : انتقال الفرد أو الجماعة من حالة إلى أخرى، داخل بناء اجتماعي تتغير معه أنماط العلاقات والنظم الاجتماعية ، يرى " هربرت سبنسر Spencer.H ، أن تطور المجتمع " عملية نمو وارتقاء" وهي –العملية– شأنها شأن– التطور العضوي– عملية نمو متزايدة التعقيد، ومتزايدة التباين في التركيب والعمل ، وكذلك في الاعتماد المتبادل بين الأجزاء المختلفة ، ويحدد سبنسر التطور الاجتماعي بأربع مراحل

---

[1] هربرت سبنسر : مقالة مترجمة مدخل حول المبادئ الاولى - موسوعة ستانفورد للفلسفة مصدر سبق ذكره ، ص ٦ - ٧

[2] جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ج٢، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت – لبنان ،١٩٨٢ ص ٢٩٤

[3] وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة . ترجمة : محمود سيد أحمد وتقديم ومراجعة : إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت .ط١، ٢٠١٠، ص٤٤٤.

[4] توماس مونرو : التطور في الفنون ، نر. محمد علي ابو درة واخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٠-١٥٢

١- المجتمعات "البدائية" التي تتميز بالتعاون السياسي العرضي (غير رسمي)

٢- المجتمعات المحاربة المتشددة التي تتميز بالسلطة اسياسية الهرمية الصارمة

٣- المجتمعات الصناعية حيث تنهار الهيمنة السياسية المركزية، مما يفسح المجال امام الاسواق المنظمة بشكل محدود

٤- شكل تلقائي، "ذات التنظيم"، سوق اليوتوبيا التي تتلاشى فيها سلطة الحكومة [١]

لقد أكد سبنسر على ضرورة تفسير الظواهر الاجتماعية والتطور الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية من خلال العوامل الداخلية والعوامل الخارجية مؤكدا على اوجه المقاربة بين المجتمع والكائن الحي، فكلاهما يتطور ويكبر، ومثلما تظهر أجهزة وأعضاء للكائن الحي فأن المجتمع في حالة نمو أكثر تعقيداً لتطفوا الوظائف المختلفة التي تؤديها الفئات الاجتماعية المختلفة والطبقات والنقابات وغيرها على إن نظرية " سبنسر" في التطور كانت تستبعد أهمية الثورات والحاجة إليها وترتكز على فكرتين هما:

اولاً : التباين – وهي الانتقال من المتجانس إلى اللامتجانس

ثانياً : التكامل– الذي يصاحب اللاتجانس ويسير جنباً إلى جنب مع التباين، أي أن التخصص لا يؤدي إلي الاستقلال والانعزال والاكتفاء الذاتي، ولكنه يؤدي إلي التضامن والتماسك واعتماد الأفراد والوظائف بعضها على البعض الأخر، وبالتالي تُأكد على مبدأ تقسيم العمل ، والدخول في علاقات اجتماعية تعتمد على التعاقدات الحرة غير القسرية وتكف الدولة عن تدخلها وسيطرتها في الأمور الاقتصادية، وتزدهر الصناعة على يد الأفراد المتخصصين، حيث تسود الديمقراطية وتظهر النظم النيابية، وبالتالي يسود المجتمع الصناعي الذي يختلف عن المجتمع العسكري الذي يقوم على أساس التعاون القهري والقوة من قبل القائد العسكري .ومن ثم يمكن القول أن " الفكرة الأساسية التي دارت حولها كتابات " سبنسر " في التطور الاجتماعي هي ارتقاء جميع الظواهر الاجتماعية على أساس الانتقال من التجانس غير المتكامل إلى عدم التجانس المتكامل[٢]

ولما كان افن احد ظواهر المجتمع يمكن ان نجد لنظرية التطور تطبيقاتها ويؤكد سبنسر ان الفن في في تطور وتعقيد متصاعد جنبا الى جنب مع العلم والتكنلوجيا وكان سبنسر شديد الاهتمام بالفنون وتواريخها المتعددة بما في ذلك الموسيقى والفنون البصرية والرقص والمسرح والادب كما اهتم بفنون ما قبل التاريخ والفنون القبلية الحديثة بوصفها حلقات وصل بين الحيوان والانسان المتوحش والمتحضر . ويطبق سبنسر مصطلح التحدر المستخدم

---

[١] **هربرت سبنسر : مقالة مترجمة مدخل حول المبادئ الاولى - موسوعة ستانفورد للفلسفة مصدر سبق ذكره** ، ص٩

[٢] **عبد الحكيم عمار نابي: اتجاهات التنمية ونظرياتها ومدى ملائمتها للتطبيق على دول العالم الثالث- المجلة الجامعة – العدد السادس عشر- المجلد الأول- فبراير- ٢٠١٤م ص٢٨٣**

لدراسة اصل الانواع البايولوجية على الفنون التي اكد تحدرها من طائفة قليلة غير متفاضلة نسبيا ثم تشعبت وتفرعت الى ما لا حصر له ، اما قانون التكييف مع البيئة الذي يحفظ بقاء الكائنات الحية وتطورها فيجد تطبيقاته في الفن من خلال ما يتضمنه من مشاعر ترتبط بالبيئة والانسان بما استدعى استمراره ونموه نحو تعقيد متزايد وهو ما نلاحظه اليوم في الحقل التشكيلي (رسم – نحت – خزف) فثمة استمرار وتطور وتعقيد للاشكال وفقاً لما تتضمنه كل مرحلة تاريخية من مؤثرات لذا يرى سبنسر ان الفن المتحضر اكثر تعقيد وتنوع من الفن البدائي .

ومن هنا يرى سبنسر ان تاريخ الفن دليل على الفرضية العامة بان كل شيء يميل الى الارتقاء من التجانس الى التغاير وعلى كافة المستويات " الارض الحياة المجتمع الحكومة وفي المصنوعات والتجارة وفي اللغة والادب في العلم والفن فان التطور من البسيط الى المعقد عن طريق سلسلة من التفاضلات المتعاقبة ينطبق عليها جميعا ولن التقدم يكمن بصفة جوهرية في التحول من المتجانس الى المتغاير ويتضح التطور من التجانس الى التغاير ليس فقط في انفصال التصوير والنحت عن العمارة ولا في شدة تنوع الموضوعات بل انه في تركيب كل عمل من الاعمال الفنية وان صورة التغاير تتضح بشدة بين تمثال قديم وتمثال حديث فالنحت في الفن المصري اتسم باسلوب موحد في اشكال شخوصه من حيث الوقفة ووالحركة والزي والوجه كذلك التقليل في اللون وتصويرها بمستوى واحد وليس على ابعاد مختلفة اما في الاشكال النحتية الحديثة يلاحظ شدة التنوع في التكوين واللون .[1]

وكما ينطوي تاريخ الحياة والمجتمع على فترات من الانتكاس والانحلال كذلك تاريخ الفنون ويضرب مثلا في ذلك بعد سقوط االحضارة الرومانية عادت الفنون الى مرحلة اشتد فيها عدم التغاير وارتبط وامتزج كل منها بالاخر ليسيطر فن العمارة واستقر طراز الكنيسة القوطية لذلك سميت هذه الفترة بالعصور المظلمة فمنذ ذلك الوقت توقفت عملية اتطور في الفنون في ذلك يقول سبنسر ان الارتداد الى حالة تناقص التغاير وتناقص التغير في الفنون هو انتكاس من حيث الكيف وهو نتيجة انحلال باثولوجي اي مرضي اصاب الامبراطورية الرومانية وطريق التحسن هو تزايد التخصص والانفصال [2] لذا كانت مقولة سبنسر الثورة الجمالية الدائمة هي وظيفة الفن[3]. متوافقة مع نظريته التطورية .

---

[1]) توماس مونرو : التطور في الفنون ، نر. محمد علي ابو درة واخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٤-١٥٥

[2]) نفسه ص١٥٦

[3]) محمد عبد مطشر: التربية لدى هربرت سبنسر)دراسة تحليلية ، مجلة نسق ، العدد١٨/ – لسنة ٢٠١٨ ص٣٦٩